

نشرة الإنسان والتطور

بقلم : يحيى الرخاوى

1980-2001

نشرة يومية من مقالات وآراء ومواقف
تعتبر امتداداً محدوداً لمجلة الإنسان والتطور

2009-7-5

السنة الثانية

[بالرغم من أن اليوم هو للتدريب عن بعد، وأن المفروض أن نكمل مناقشة لعبة "ياه !! دى طلعت صعبة بشكل...".
إلا أننا لظروف خاصة قاهرة أجلناها للأسبوع القادم ليحل محلها
الجزء (9) من شرح على المتن: ديوان أغوار النفس، بالإضافة
لثلاثاء والأربعاء كالعاده،
على أن نواصل نشر مناقشة اللعبة الأحد القادم].

العدد : 674

دراسة فى علم السيکوباتولوجى (الكتاب الثانى)



لوحات تشكيلية من العلاج النفسى
شرح على المتن : ديوان أغوار النفس



الحلقة (9)
الفصل الأول

لعبة الكلام :
سبع جنازات
الجزء الأول (1 من 2)

مرّ الهواء، صفّر كان النعش بيطلّع كلام !! الجزء الأول من المقدمة

اللغة ليست هي الكلام، لكن الكلام يبدو أقدر الأدوات على احتوائها في مرحلة تطور الإنسان المعاصر.

يشاع أن العلاج النفسي هو علاج بالكلام، وهذا يحتاج إلى مراجعة، وخاصة بعد أن اشتُعمل هذا الاسم "العلاج النفسي" لما يقرب من قرن الآن، مرادفاً - غالباً عند العامة - لما يسمى التحليل النفسي. المتتبع لما نشر في النشرات هنا حتى الآن في كل من بائي "التدريب عن بعد"، و"حالات وأحوال"، لا بد أن يكون قد وصله من الإشراف والعرض والمناقشات قدر غير قليل من نقد هذه المسلمات الشائعة، فلا العلاج النفسي هو التحليل النفسي، ولا العلاج النفسي هو علاج بالكلام.

وبرغم كل ذلك فإنه لا توجد وسيلة للتواصل بين البشر الحاليين أكثر اقتصاداً، وأسرع احتواءً للمعنى، وأقدر توصيلاً إلى هدف التواصل، من الكلام، خذ مثلاً ما أفعله الآن: هذه الحروف التي أرصها بجوار بعضها لأهاجم بها "الكلام" الآخر، أليست هي نفسها كلاماً مكتوباً؟، أليست حروفاً مرصومة بانتقاء تلقائي من لوحة الحسوب، حروفاً تقفز فتتجاوز مع بعضها البعض دون وعي بتفاصيل ما أفعل - بعد طول مران- فتتكون الكلمات تشكل مع بعضها جملاً مفيدة أحاول أن أوصل بها شجبي لمثل هذا الرص الكلامي متى كان فارغاً أو معطلاً؟ هل عندي وسيلة أخرى أوصل بها ما أريد توصيله؟

القضية، مثل معظم قضايا الإنسان المعاصر: تتحدى، ولا يمكن اختزالها إلا على حساب التخلي عن محاولة استيعابها، هذه القضية بوجه خاص تواجهنا في موقعنا هذا ونحن نحاول أن نشرح ماهية العلاج النفسي، أو بصراحة العلاج عامة، فكما أكرر دائماً، كل علاج حقيقي هو علاج نفسي حتى علاج المغص الكلوي.

نبدأ من البداية:

هل الإنسان:

حيوان ناطق؟

أم أنه حيوان عاقل؟

أم أنه حيوان يتكامل إلى ما يحتويه به تاريخه مستعملاً الأحداث فالأقدم بالتبادل الإيقاعي فالجدل المتصاعد إلى ما لا نعرف (الغيب)؟ يتكامل بكل مستويات الكلام واللغة (واللغات) والمفاهيم والفكر والعقل (والعقول) ، والجسد، والوعي؟

هذه الفكرة الأخيرة هي مفتاح ما أريد أن أقدمه في كل أعمال خاصة ما يتصل بمهنتي عملياً
لحظة عن نمو الكلام وعلاقته بالمعنى واللغة

الكلام هو من أحدث الأدوات التي تساعد البشر على التواصل فيما بينهم لكنه ليس بالضرورة الأداة الأقدر وحدها، وما يهمننا هنا هو تحديد متى ينفصل الكلام عن تاريخ تطوره، ومتى ينفصل عن المعنى، وعن الغاية، وعن سائر وظائفه، بل وعن اللغة، ومتى يؤدي عكس وظيفته؟

(أنا أكتب هذا الشرح دون الرجوع إلى مراجع أهل الاختصاص الدقيق، إن هدفي هنا هو عمليّ تدريبيّ)

1. حين ينشأ الكلام عند الطفل يرتبط عادة بما تشير إليه الكلمة، حتى أنه كثيراً ما يستعمل نفس الكلمة، لتعني معان كثيرة، وكل الفرق يكون في التنغيم وما يصاحبه من إشارات نتيجة لحضور الموضوع (الشيء) عادة أمام حواسه، أو نتيجة لاختلاف السياق أو الموقف الذي يوجه فيه نفس الكلمة المنطوقة إلى المعنى المختلف، المثال الذي استشهد به كان طفلاً - أصبح الآن جراحاً كبيراً في إنجلترا- نطق كلمة "كُرّة" مبكراً، ولم تكن بهذا الوضوح بل أظن أنها كانت "كوووية" ، وبدأ يطلق نفس اللفظ على عدد هائل من الأشياء، بل والأشخاص، مع تغير التنغيم والإيقاع المصاحب أحياناً بالإشارة إلى ما يريد، فهذا "كويه"، وذاك "كووووياااه"، وتلك "كوة"، وهذه "كره" (بعد أن استطاع نطق الراء إلا قليلاً)، وأعتقد أن هذه المرحلة هي نوع من الربط بين الصوت والاشارة والموضوع، فهي مرحلة التجربة والخطأ، حتى تتميز الأشياء مع اكتساب أجدية أكثر فأكثر Denotation.

2. ينفصل اللفظ عن ما يشير إليه "حالا"، ويصبح هو ذاته كيانه مستقلاً، يجتوى- يتضمن- المعنى المراد، سواء حضر الشيء المراد أمامه (أمام حواسه) أم حضر في ذاكرته أم في وعيه، هنا يتضمن اللفظ محتواه بما يعنيه، ولعل هذه هي مرحلة التضمن، Connotation

3. إن استقلال اللفظ عن موضوعه بشكل مباشر وبعد أن يصبح موضوعا في ذاته، لا يعني أنه ينفصل عن المعنى أو عن الغاية التي تنشأ ليؤديها، وإنما يكتسب اللفظ قدرة ذاتية، يستعملها في وظيفته للاقتصاد، وهما المفروض أنها تتيح له تشكيل المفهوم تلو المفهوم، في تصعيد متكامل

فإذا رجعنا إلى ذلك الطفل بعد أن أصبح جراحا "إنجليزيا"، ذلك الطفل الذي كان يستعمل لفظ الكرة لكل شيء تقريبا، وطلبنا منه تعريف لفظ الكرة، فقد يرجع إلى القاموس، وسوف يجد أن: "الكرة: هي كل جسم مستدير، ومنه الكرة الأرضية، والكرة أداة مستديرة من الجلد ونحوه يلعب بها.. (الوسيط) إلخ"، وهكذا أصبح لفظ مضمون متعارف عليه بالتحديد لإفادة الحضور العياني لشيء بذاته حتى لو لم يوجد هذا الشيء حالاً. فإذا انتقلنا إلى المجال وقلنا بالعامية "الكرة اجوان" (حتى لو ترجمناها إلى الفصحى "الكرة ليست إلا أهدافا")، فإننا لا نعني هذا الجسم المستدير... إلخ، كما ورد في المعجم، وإنما نحن نتكلم عن مفهوم أكثر تعقيدا يشير إلى أنه "من لم يجرز أهدافا في ملعب الكرة، فكأنه لم يمارس اللعب أصلا." حتى لو تكلمنا عن "اتحاد الكرة"، فإننا نعني معنى غير التضمين المغلق، وغير المفهوم المجازي الذي أشرنا إليه حالا، فبمجرد ان يصبح لفظ الكرة "مضافا إليه"، يختلف معناه، وهكذا.

اغتراب الكلام

مع تطور القدرة الكلامية، لابد أن تحف جرعة التركيز على ان يحمل كل لفظ كل المعنى المتضمن فيه، الذي نشأ اللفظ لاحتوائه، وهذا جيد اقتصاديا للتخفيف من عبء حضور كل المعنى في كل اللفظ ليحتل بؤرة الوعي باستمرار، إذا أن هنا الحضور الكلي المستحيل لابد وأن يبطن سرعة الإفادة والتواصل حتى تتعطل، ومن هنا فنحن في حاجة مناسبة لقدر من التخفيف يحول دون تضمين كل لفظ كل معناه، وهكذا يصبح هذا التخفيف حيلة دفاعية تساعدنا على تجنب المواجهة المعطلة بالسرعة البطيئة، وأيضا يساعدنا على التخلي المشروع عن مسئولية تفعيل ما تضمنه كل كلمة من معنى يتطلب فعلا وموقفا وقرارا... إلخ. مثل أية آلية دفاعية، إذا ما زادت وظيفتها الدفاعية عن حاجتنا إليها تنحرف بمسار النمو أو توقفه تماما،

دعونا نتناول الآن ما يحدث للكلام إذا انحرف بالنمو عن مساره إلى ما هو زائف مغترب، إن ما يحدث حين ينفصل الكلام أكثر فأكثر عن مضمونه وحفزه أن يستقل عن معناه بدرجات متزايدة حتى يفقد أصول وظائفه، فبدلا من أن يصبح تبادله سعيًا إلى الفهم والتفاهم، يصبح تبادله أقرب إلى الدفاعات ضد الفهم، متجاوزا المعنى المشترك المراد، فلا يعود يؤدي وظيفته المعرفية، بل يصبح عبئا على اللغة الكائن الحي، ومن ثم على الوجود البشرى المتكامل، وينقلب عائقا للنمو، ومضيفة للوقت، ومظهرا للاغتراب. الأرجح أن هذا هو ما يسمى أحيانا "طق هنك"، أو "أى كلام" أو "كلام في الهجايص"،

(وقد عبرت اللغة الشبابية عن هذا الاغتراب بقاموس كامل لمن شاء أن يرجع إليه، حتى أنني فسرت ظهور هذه اللغة الشبابية بأنها احتجاج ضمني على ما آل إليه حال الكلام اغترابا هكذا، واعتبرت أن هذه اللغة الجديدة المرفوضة من المؤسسات والسلطة على حد سواء، هي نوع من تنشيط حركية اللغة، تماما مثلما يقوم الشعر بتجديد اللغة، حين يعيد تشكيل الصورة بنفس الأجدية اللفظية لبيدع لنا مختلفا في تشكيل جديد، وتفصيل ذلك في مبحثي "حركية اللغة بن الشعر والشارع".

من خلال هذا الاغتراب المتماذي تتحول الكلمات إلى أصوات، مهما كانت هي نفس الكلمات ذات التاريخ والمعنى كما تتحول الجمل إلى مقاطع مفككة بلا تشكيل ضام أو هادف، ويتحول هدف الكلام إلى "تزجية للوقت"، كوسيلة دفاعية ضد الوعي الأعمق بالمعنى، فالإلزام بالفعل.

ويتحول التواصل المحتمل بالكلام الحي، إلى صفقات تسكينية قصيرة العمر. يصدق كل ذلك في الحياة العامة مثلما يصدق في بعض ما يسمى العلاج النفسي، (التفريغ، التسكين، الخدعة) وهو ما نحاول نقده هنا هكذا:

أول المتن:

مِرْهُوَ صَفْرٌ، سَمِعْنَا الصُّوتَ كَأَنَّ النَّعْشَ يَبْطُلُ كَلَامٌ:
"لأ... لسه... إسكنت... لم حصل.

،سيما... ياتاكسي،.. لسه كام ؟"
أى كلام.

ألفاظ زينته، مسكينه،
بتزقزق، وتضوضو،
.. وخلص!!

من الواضح أن هذه البداية تشير إلى أمرين مما سبق شرحهما حالا في المقدمة، فمن ناحية تعلن أن الكلام لم يعد إلا أصواتا، وأن الجسد البشرى أصبح نعشا، وأن الوجود الإنساني أصبح موتا، فراحت الأصوات تخرج كأنها الكلام، وراح الكلام يخرج ليس إلا أصواتا. ثم يتواصل المتن في محاولة تفسير لماذا حدث ذلك قائلا:

المتن:

اللفظ ماثٌ مِنْ ركنيَّته .
من لعبة العسكر وطول تخبيَّته ،
ظرف رصاص فاضى مصدى فِ عليَّته .
لما القلم سنه اتقصف؛ عملته تلبسه تمكَّن ماسكتُه ،
واهى شخبطه .
شرح على المتن

الكلام عضو حى من أعضاء الوجود الحيوى البشرى، ومثلما يضمُّرُ أى عضو نتيجة "عدم الاستعمال"، مثلما ضمرت فقرات ذيلنا وعضلاته لما توقَّفت أجدادنا عن التعلق بها فى الشجر، فإن أى عضو لا يُستعمل يضمُر حتى يخنق أو يكاد، كذلك الكلام إن لم يستعمل فى وظيفته الأصلية نتيجة للقهر والقمع، يضمُر أو يصبح غير ما هو، لأنه يخدم غير ما نشأ من أجله .

حين مجال بين الإنسان وبين توظيف كلامه فى تأكيد ذاته، وتوصيل فكره، والإسهام فى دعم إرادته، لاتخاذ قراره وتشكيل إبداعه، ثم يطول هذا القهر والقمع، فإن كل ما يصدر من أصوات تشبه الكلام لا تكون كلاماً، ويبقى الكلام الأصل كامناً بداخلنا دون تنشيط أو تدعيم، لأنه لم يعد له فائدة فى تحقيق الوجود أو دفع المسيرة على طريق النمو، هكذا يموت اللفظ فى ظلام القهر، يموت بالمنع، ثم يموت بالاستغناء، ، "اللفظ مات من ركنته، من لعبة العسكر وطول تخبيته"،

هكذا يصبح الرمز رمزا ليس إلى ما يشير إليه، وإنما إلى نفسه، وتتكاثر الرموز وتتكاثر وتزاحم بعضها بعضاً، حتى تصبح عبئاً على الوجود، مما يهيب للمرض النفسى وللإغتراب العقلى هرباً من الإغتراب النمطى المفرغ من الوجود الحى. هكذا يصبح الوجود البشرى هيكلًا خاوياً (نعشاً) تتردد فيه أصوات لا تؤدى وظيفتها سواء فى إثراء الوجود، أو فى التواصل بين البشر، أو فى تشكيل الإبداع تصعيداً أو تجديداً .

المتأمل فى الألفاظ اليومية المتبادلة بين الناس قد ينزعج من عدم ترابطها الأعمق، أو من خلوها من المعنى الأصلى لها، أو من خروجها من معناها الأصلى إلى معنى آخر قد يكون نقيض الأول، خذ مثلاً من يستعمل الفاظ: السلام (السلام عليكم)، والخير (صباح الخير) ولا يعنى بهما شيئاً.. لا من السلام ولا من الخير.

هكذا تخنق المعانى التى كانت تحتويها الألفاظ، فيصبح اللفظ غطاءً لإناء بلا محتوى، وبلا نبيض يحافظ على جدته وحيويته، "ظرف رصاص فاضى مصدى فِ عليَّته" ومع ذلك، فلا يوجد بديل، هو نفس اللفظ الخاوى، هو الوسيلة الوحيدة - تقريباً- التى يمكن أن أكتب بها هذا الكلام، هو هو الأجدية التى استعملها لأصفه هو نفسه أنه: "ظرف رصاص فاضى مصدى فِ عليَّته"

ليكن...
لكن مازال اللفظ موجوداً مهما أفزع أو صدأ،
ومازلنا فى أمس الحاجة إليه،
وعلىنا أن نواصل بما تبقى منه، لعل وعسى..
أليس هو (اللفظ، مجواره لفظ، ثم لفظ مضاف إليه لفظ...إلخ) الذى يمكننى الآن من مخاطبتك عزيزى القارئ، أليس هو الذى يعرئ ما جرى له، أى ما جرى لى، أى ما جرى لك؟

أليس هو الذى جعل الشباب يرفضون ما آل إليه حال الكلام فاللغة، فاخترعوا لغتهم بنفس الحروف، ولكن بتجديد مغامر، جعلت كل السلطات تخاف منهم، وتدمغهم وترفضهم، وهم لم يفعلوا شيئاً إلا إعلان أن كلامنا قد أصبح **ظرف رصاص فاضى مصدى فِ عليَّته** .

أختم يومية اليوم عند هذا الحد مقتطفاً من ديوانى "سر اللعبة" (والذى كان شرحه هو الجزء الأول من هذا العمل) أقتطف نفس معنى الإغتراب الكلامى الذى بدا لى أنه كان بالفصحى أسهل، أو على الأقل أخف لسعا من نار العامية الملتهبة، مع أنه تكلم أيضاً عن "الأحياء الموتى" قلت:

والأحياء الموتى فى صخب دائم
ويخيل للواحد منهم أن الآخر يسمعه
والآخر لا تشغله إلا نفسه
أو موضوع آخر

لكن الرد الجاهز، دوماً جاهز:

- ما حال الدنيا؟
- = الدفع تأخر
- هل نمت الليلة؟
- = الأسهم زادت
- كم سعر الذهب اليوم؟

= المآثم بعد العصر؟! =

"والكل يدافع عن شيء لا يعرفه
جماس لا يهدأ أبداً،

وبعد

أتوقف هنا مع أنى لم أكمل المقدمة، إلى أن نلتقى الأسبوع القادم، لنقدم الجزء الثانى والأخير، ثم ندخل إلى الحالات.

وفيما يلى المتن المتبقى للشرح، وفيه نقد العلاج النفسى الكلامى (المشاع عنه أنه التحليل النفسى كما ذكرنا) ثم بعد ذلك نرى كيف تدب الحياة فى الكلمات،
متن الجزء الثانى من المقدمة:

واحد نائم مئضليطخ، وغنيه تتفرج:
على رسم السقفِ وعلَى أفكارِو اللى بتلف،
تلف، تلف، تلف،

وكلام فى كلام .. هاتك يا كلام. يا حرام!!
والثانى قاعدلى وراه، على كرسي مدهب.
قلبه الأبيض طيب. وسماعه لم يتعيب،
عمال بيفسر أحلام

وصاحبنا يرص فى أوهام،
وعقد، ومركب، و"المكتوب"
وقدر، وحكاوى، وصف ذنوب.
وأخينا شفايفه قفل رصاص،
وودائه يا خويا شريط جساس.
يسمغ حكايات .. حكايات،
وتمر ساعات وساعات،
(ما أظنش أيوب مات).
"إشي عدى البحر ولا اتبلش"؟؟
"قالك: العجل فى بطن امه"!!
أرزاق ..!
وخلايق لابسه الوش زواق.

ثم يصحو الكلام

وسباق آخر وعلاج آخر:

اللفظ قام من زقديه.
ربك كريم ينفخ فى صورته ومعنيته.
يرجع يغنى الطير على فروع الشجر.
ويقول "يارب"،
ومجيلة رد الدعوة من قلبه الرطب.

.....
ألفاظ بتهر الكون،
وبتضرب فى المليون،
وتغير طعم الضحكة،
وتشع النور ما الضلمه،
وبتفضخ كذب الساكت،
وبتفقس كل جبان.

شرح على المتن:

(الجزء الثانى من المقدمة)

الأسبوع القادم